Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 01:1 (1965)

السلطان ملک شاه السلجوقی

الباب الرابع من جامع الدول لمنجم باشی

تحقیق الاستاذ السید ابی الحسن

فتولی السلطنة علی وصیته ابنه جلال الدولة ابوالفتح السطان ملکشاه بن الب ارسلان محمد بن جغری بیك داود بن میکائیل بن سلجوق بن دقاق فی عاشر ربیع الاول من سنة خمس و ستین و أربعمائة و قام بوزارته وزیر أبیه نظام الملك . وزاد الاجناد فی ارزاقهم سبعمائة ألف (MS., p. 17) دینار ، وعاد الی خراسان و وصل الی نیسابور وأرسل الی ملوك الاطراف یدعوهم الی الخطبة له وانقیاد الیه. وأقام اخاه الامیر الیاس[2] ببلخ و سار السلطان ملکشاه فی عساکره من نیسابور الی الری .

ولما سمع صاحب سمرقند بوفاة الب ارسلان سار وأخذ ترمذ ـ وکان الامیر الیاس[3] قد سار الی جوزجان فسار صاحب سمرقند الی بلخ فاطاعه اهلها فامنهم علی اموال أخذها من اهلها ـ ثم عاد الی بخارا فجاء الیاس[4] و اطاعه اهل بلخ فسار فی جمع الی ترمذ و قاتل جیش صاحب سمرقند و انهزم منهم و قتل کثیر من اصحابه و غرق مثلهم ـ

و کذا سار صاحب غزنة الی مکلکند و کان بها عم ملکشاه عثمان بن داود جغری بیك فاخذ المدینة وأسر الامیر عثمان و حمله الی غزنة ـ

و کذا اظهر العصیان علی ملك شاه عمه قاورت بیك بکرمان لما سمع بموت اخیه الب ارسلان حدثته نفسه بالسلطنة فسار فی جمع عظیم الی الری فاستقبله ملك شاه فالتقوا بقرب همذان فی رابع شعبان من هذه السنة و کان العسکر یمیلون الی قاورت بیك ـ و کان مع ملکشاه شرف الدولة مسلم بن قریش العقیلی و بهاء الدولة منصور بن دبیس الاسدی ـ ولما اشتد القتال وانهزمت میمنة ملکشاه حمل شرف الدولة وبهاء الدولة فیمن معهما من العرب و الاکراد علی میمنة قاورت فهزموها ـ وتمت الهزیمة علی

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

اصحاب قاورت ـ فمضى المنهزمون من اصحاب ملكشاه الى حلل شرف الدولة و بهاء الدولة فنهبوها غيظاً منهم حيث هزموا عسكر قاورت ـ و اخبر السلطان ان عمه قاورت فى بعض تلك القرى فارسل جمعاً فاحضروه اليه فامر سعد الذولة كوهرآئين بخنقه ـ و اقر كرمان بيد اولاده و سير اليهم الخلع واقطع العرب و الاكراد اقطاعات كثيرة لما فعلوه فى الوقعة ـ

و بعد هذه الوقعة فوض السلطان جميع اموره الى نظام الملك ـ وسماه الاتابك يعنى الوالد الامير ـ و قال له : انت الاب الشفوق ، اليك الامور كلها صغيرها و كبيرها ـ وزاد فى اقطاعاته كثيرة ، من جملتها مدينة طوس ، التى كان نظام الملك قد ولد بها ونشأ فيها ـ وخلع عليه ـ وكان السبب فى ذلك العسكر كانوا قد مدوا ايديهم الى اموال الرعية فنال الرعية من ذلك اذى شديداً ، فذكر نظام الملك ذلك الى السلطان وبين له ما فيه من الوهن وذهاب الملك ـ فقال له : افعل فى هذا ماتراه مصلحة ـ فقال له نظام الملك : ما يمكننى ان أفعل الا بأمرك ـ ففوض اليه السلطان جميع الامور ـ ولم يكن للسلطان بعد ذلك الا ان يجلس على السرير و يخرج للصيد ، وكان مشغولا به لاغير ـ

و فى سنة ست وستين واربعمائة فى صفر سير السلطان سعد الدولة كوهر آئين الى بغداد لطلب تقليد السلطنة من الخليفة ، فسار اليها ـ وجلس له الخليفة و كان يوماً مشهوداً ، فقلد السلطنة و كتب اليه المنشور و ارسل الخلع و اللواء المعقود بيده ـ

و فى هذه السنة سار السلطان و عبر جيحون الى ترمذ فاخذها و استعمل عليها الامير ساوتكين و امره بعمارتها و تحصينها ، و قصد سمرقند ، ففارقها صاحبها وطلب المصالحة فأجيب الى ذلك فعاد ملكشاه عنه الى خراسان ثم منها الى الرى ـ و اقطع بلخ و طخارستان لاخيه شهاب الدين تكش ـ و فى هذه السنة توفى اخوه الامير الياس و كفى شره لانه كان يخاف من خروجه ـ

و فى سنة سبع وستين واربعمائة جمع نظام الملك جماعة من المنجمين واتفقوا على جعل النيروز عند حلول الشمس اول نقطة من الحمل ، و كان النيروز قبل ذلك عنه حلول الشمس نصف الحوت ـ وصار هذا الوضع مبدأ

التقاويم - وفيها ايضاً عمل الرصد للسلطان ملكشاه (MS., p. 18) واجتمع جماعة من اعيان اهل النجوم على عمله : منهم ابراهيم الخيامى وابو المظفر الاسفزارى و ميمون ابن نجيب الواسطى وغير هم - وخرج عليه من الاموال شئى عظيم وبقى الرصد دائراً الى ان مات السلطان فبطل بموته -

و فى سنة ثمان و ستين و أربعمائة أرسل السلطان سعد الدولة كوهرآئين شحنة الى بغداد -

و فى سنة سبعين و اربعمائة اقطع السلطان اخاه تاج الدولة تتش بن الب ارسلان الشام و ما يفتحه من تلك النواحى فحصر حلب و ضيق على اهلها ثم استنجده اتسز صاحب دمشق على المصريين المحاصرين له بدمشق فسار اليهم فتنحى المصريين من بين يديه ثم قبض على اتسز و قتله و ملك دمشق فى سنه احدى و سبعين و اربعمائة و احسن الى اهلها و اقام بها -

و فى هذه السنة ولد للسلطان ولده بركيارق -

و فى سنة اثنين و اربعمائة سار السلطان الى كرمان فاستقبلة ابن عمه سلطان شاه بن قاورت بالطاعة الهدايا فاكرمه السلطان واقره على بلاده - و فيها سار السلطان الى خوزستان متصيداً فاتصل اليه كوهرآئين وخمارتكين الشرابى فسعيا فى قتل ابن علان اليهودى ضامن البصرة و كان من خواص نظام الملك فامر السلطان بتغريقه فغرق فانقطع نظام الملك من الركوب ثلثه ايام واغلق بابه - ثم أشير[٧] عليه بالركوب فركب و عمل للسطان دعوة عظيمة قدم اليه فيها اشياً كثيرة و عاتبه على فعله فاعتذر اليه - وكان امر اليهودى عنده عظيماً الى حد ان زوجته توفيت فمشى خلف جنازتها كل من بالبصرة الا القاضى - وكان له اموال كثيرة فاخذ السلطان منه مائة الف دينار ومائة فرس فعاد الى اصفهان -

و فى سنة ثلاث وسبعين و اربعمائة خرج على السلطان اخوه شهاب الدين تكش - وكان سببه ان السلطان سار الى الرى و عرض العسكر فاسقط منهم سبعة آلاف رجل من الديوان وكانوامن الارمن المتشبهة بالتراك - ولما امر الاسقاط قال له نظام الملك ان هؤلاء ليس فيهم كاتب ولا خياط و لا من له صنعة غير الجندية فاذا اسقطوا لا نأمن - و ان يقيموا احدا فيفسدوا فى البلاد و يخرج من ايدينا اضعاف مالهم من الجارى قبل ان نظفر بهم - فلم يقبل

السلطان قوله ـ فصارت هؤلاء المسقطون الى اخيه تكش و هو ببوشنج فحركوه على العصيان فقوى بهم وعصى على السلطان و لما وصل الخبر الى السلطان ندم على عدم قبول وزيره حيث لم ينفعه الندم ـ فاستولى تكش على اكثر بلاد خران و قصد نيسابور فاسرع السلطان و سبقه اليها فسار تكش الى بلخ و ارسل اخاه فى الصلح والعفو فعفى عنه السلطان وقرره على ولايته ـ

و فى سنة اربع و سبعين و اربعمائة مات للسلطان ابن ، اسمه داود ـ فجزع عليه شديداً و حزن عظيماً و منع من اخذه و غسله حتى تغيرت رايحته ـ و اراد قتل نفسه مرات ويمنعه اصحابه ـ ولما دفن لم يطلق[٨] المقام فخرج متصيدا و امر بالنياحة عليه فى البلد ففعل ذلك عدة ايام ـ وجلس له وزير الخليفة للعزآء ببغداد ـ

و فى شوال هذه السنة ارسل الخليفة المقتدى وزيره فخر الدولة بن جهير الى اصفهان ليخطب للخليفة من السلطان بنته ـ فلما وصل الى المعسكر بجل وعظم و مضى نظام الملك معه الى تركان خاتون و خاطبها فى معنى الوصلة بابنتها ـ فقالت ان ملك غزنة و ملوك الخانية قد ارسلوا فى خطبتها و بذل كل منهم عن ولده لها اربعمائة الف دينار فان بذلها الخليفة فانى اختار شرفه ـ فعرفتها ارسلان خاتون زوجة القائم مايصير اليها من الجلال و الجمال (MS., p. 19) و بين لها الفقيه المشطب بن محمد الحنفى جلية الحق و حقيقة الحال و قال هؤلاء الملوك عبيد الخليفة و مثله لا يقابل بطلب المال ـ فحينئذ اجابت و اصابت و اخذ فخرالدولة يد السلطان على العقد و عاد فى صفر سنة خمس و سبعين و اربعمائة الى بغداد ـ

و فى سنة خمس و سبعين و اربعمائة مات جمال الملك ابن نظام الملك و كان سبب موته أمراً غريباً يليق لان ينقل و هو انه كان للسلطان مسخره يقال له جعفرك و كان يحاكى نظام الملك و يذكره فى خلواته مع السلطان فبلغ ذلك جمال الملك و كان يتولى مدينة بلخ واعمالها فسار مجداً من وقته الى والده باصفهان فاستقبله اخواه فخرالملك و مؤيد الملك فاغلظ لهما القول فى اغضائهما على ما بلغه من أمر جعفرك فلما وصل الى حضرة السطان رأى جعفرك فيها يسارر السلطان فقال له جمال الملك ايها الكلب مثلك يقف و ينبسط بحضرة السلطان فى هذا الجمع ـ فلما خرج من عند السلطان

امر اصحابه بالقبض على جعفرك وامر باخراج لسانه من قفاه فمات ثم سار مع ابيه والسطان الى خراسان فاقاموا بنيسابور مدة، ثم ارادوا العود الى اصفهان[٩] فتقدم نظام الملك فاحضر السلطان عميد خراسان و قال له ايما احب لك رأسك أم رأس جمال الملك؟ فقال بل راسى - فقال لئن لم[١٠] تعمل على قتله لا قتلنك - فوضع الخادم يختص بخدمة جمال الملك فخدعه بالوعد والوعيد حتى قتله الخادم بالسم - ولما علم السلطان بموته سار مجداً حتى لحق بنظام الملك فاعلمه بموت ابنه و عزاه وقال انا ابنك والخلف عمن ذهب و انت اولى من صبر و احسب - وكان اوقع التدبير فى حق ابن بهنيار حتى اخذه وسمله كان قد بلغه ان ابن بهنيار هذا طالب للوزارة و انه بوغر قلب السلطان على والده نظام الملك عند انتهاز الفرصة -

و كان جمال الملك[١١] ابو منصور بن نظام الملك اكبر اولاده[١٢] وفيه دهأ و جرأة[١٣] وعزة ونخوة كان قد خاطبه ابوه فى ايام الب ارسلان ان يزر لولده ملكشاه فاظهر امتناع أبى و قال مثلى لا يكون وزيراً لصبى - ثم اقام ببلخ متولياً و على تلك الممالك مستولياً - حتى وقعت وقعة جعفرك فقتل بالسم كما ذكرنا -

و فى هذه السنة فى جمادى الاولى منها ورد مؤيد الملك بن نظام الملك الى بغداد من اصفهان و نزل فى داره - وضربت على بابه الطبول فى اوقات الصلوات الثلاث وعد ذلك من منكرات الاحداث و وصل بعطاء رضيه وقطع يه ضرب الطبل - و فى شعبان منها جلس لعزآء اخيه جمال الملك و ركب اليه فخر الدولة و عميدالدولة للتعزية -

و فى هذه السنة سار الشيخ ابو اسحاق مدرس النظامية ببغداد رسولا[١٤] من المقتدى الى السلطان و فاوضه شفاهاً و شكى اليه من العميد ابى الفتح بن الليث سفاهاً[١٥] فوصل الى خراسان و ناظر مع الامام ابى المعالى الجوينى و كان معه تلامذتة الشاشى و ابن قنان[١٦] والطبرى و كان معه جمال الدولة[١٧] عفيف الخادم - و عاد الشيخ الى بغداد ثم توفى قدس سره ليلة الاحد الحادى والعشرين من جمادىالاخرة من سنة ست و سبعين و أربعمائة - فرتب مؤيد الملك مكانه أبا سعد المتولى مدرساً فلم يرض والده نظام الملك يه فجعل التدريس للشيخ الامام أبى نصر الصباغ صاحب الشامل - وخرج مؤيد

الملك الى خدمة والده ـ و عزل عميد الدولة بشكاية الشيخ ـ

و فى سنة ست و سبعين واربعمائة قتل السلطان سيد الروساء أبا المحاسن بن كمال الملك ابى الرضا و كان قد تقرب من السلطان قرباً عظيماً و كان أبوه يكتب الطغرآء فطمع ابو المحاسن فى نظام الملك و منصبه فقال للسلطان سلم الى نظام الملك واصحابه و أنا أسلم اليك منهم ألف ألف دينار فانهم ياكلون الاموال ويقتطعون الا عمال[18] فبلغ ذلك نظام الملك فعمل سماطاً عظيماً وأقام عليه مماليكه وهم الوف من الاتراك ومعهم (Ms., p. 20) سلاحهم على حمالهم[19] فلما حضر السطان قال له انى خدمتك و خدمت اباك و جدك و لى حق خدمة و قد بلغك اخذى لعشر اموالك و قد صدق هذا و انا اخذه و اصرفه الى هؤلاء الغلمان الذين جمعهم لك واصرفه ايضاً الى الصدقات والصلات والوقوف التى أعظم ذكرها و شكرها لك وأموالى وجميع ما املكه بين يديك وانا أقنع بمرقعة وزاوية ـ فأمر السلطان بالقبض على أبى المحاسن و ان تسمل عيناه فاستجار ابوه بدار نظام الملك فسلم و بذل مائتى ألف دينار و عزل عن الطغرآء و رتب مكانه مؤيد الملك بن نظام الملك ـ

و فى هذه السنة عقد السلطان على فخر الدولة بن جهير وزير الخليفة ديار بكر وخلع عليه و اعطاه الكوس و العلم و اذن له فى الخطبة لنفسه و فى السكة باسمه و انفذه الى مدده فى سنة سبع و سبعين و اربعمائة الامير ارتق فى جمع من التركمان فاستخلص ابن جهير تلك الديار من ايدى بنى مروان كما سبق فى فقرته ـ

و فى سنة سبع و سبعين و اربعمائة توفى من كبار دولة السطان و اعيانها الامير عماد الدولة سرهنك ساوتكين كان قد خدم اباه وجده و كان موته بالسل فى اصفهان ـ

و فى هذه السنة عصى على السلطان اخوه تكش و كان اصحابه يحركونه على العصيان يحبون الاختلاط والفتة للنهب فحسنوا له مخالفة أخيه السلطان فأظهر العصيان فسار ينهب بلاد خراسان ويخربها فسار السلطان واخذه ولم يفلته بعد ذلك و سلمه الى ابنه احمد فامر احمد بكحل عينه فاكحل وسجن و انما سلمه السلطان الى ابنه وفعل هو ما فعل لانه كان

قد حلف على ان لايقتله و لايوذيه بشيء فقال له بعض الفقهآء بتسليمه الى ابنه ليفعل به ما اراد -

و لما خرج تكش كان السلطان بالجزيرة على بعد من خراسان فاحتال ابو الفتوح الطوسى و كيل نظام الملك بنيسابور فى امر تكش لما حصر سرخس و قرب من الاخذ - وذلك انه كتب كتاباً بخط يشبه بخط نظام الملك الى صاحب سرخس مسعود بن ياخز[٢٠] يعرفه بقرب عسكر السلطان و يامره بعدم الاشاعة حتى يكبسوا تكش و دفع الكتاب الى رجل و وعده بالاحسان اذا نجح المقصود و قال له سر مجداً فاذا قربت من عسكر تكش ثم فى موضع كانك ترصد الليل للدخول الى البلد ولما وجدك طلايع تكش وحملوك[٢١] اليه فامتنع و انكر فاذا اوعدك بالقتل بعد ضرب وايلام اخرج الكتاب ففعل الرجل و لما قرأ تكش سار فى وقته و ترك هو و اصحابه[٢٢] خيامهم و دوابهم و قدورهم على النار فنزل مسعود فاخذ ما فى العسكر جميعه و ورد السلطان خراسان بعد ثلثة اشهر و لو لا هذه الحيلة لعظم البلاء على خراسان -

و فى هذه السنة ولد السلطان سنجر بن ملك شاه فى الخامس[٢٣] والعشرين من رجب بمدينة سنجار من الجزيرة قريب الموصل وسمى احمد وانما قيل له سنجر باسم المدينة التى ولد فيها و امه ام ولد -

و فى سنة تسع وسبعين و اربعائة سار السلطان فى عسكره قاصداً نحو الشام فاخذ اولا مدينة الرها من يد الروم وكانت بنو نمير[٢٤] قد باعها[٢٥] منذ سنين فولاها لمملوكه الامير بزان ثم ملك قلعة جعبر و قتل من بها من بنى قشير واخذ صاحبها جعبرا و هو شيخ اعمى و ولدين له و كانوا يقطعون الطريق ويلجئون اليها[٢٦] ثم عبر الفراة الى حلب فاخذ مدينة منبج فلما قرب من حلب رحل عنها اخوه تتش و كان قد حاصرها و سلك البرية ومعه الامير ارتق فاشار عليه بكبس عسكر السلطان (MS , p. 21) فامتنع تتش وقال لا اكسر جاه اخى الذى انا مستظل بظله فانه يعود بالوهن على فسار الى دمشق و انه لو كان كبسهم لظفر بهم فتسلم السلطان حلب من سالم بن مالك بن بدران وعوضه عنها بقلعة جعبر كما مر ولما ملك السلطان حلب سلمها الى قسيم الدولة اق سنقر و كان زوج داية[٢٧] السلطان التى رضعته[٢٨]

و ربتـه[٢٩] بمنزلة امه فعمرها واحسن السيرة فيها ـ

ولما تم امر الشام والجزيرة عاد السلطان الى بغداد و دخلها فى ذى الحجة وهذا اول قدومه الى بغداد ونزل بدار السلطان وركب من الغد الى الحلبة ولعب بالكرة والجوكان وارسل الى الخليفة هدايا كثيرة وركب مع نظام الملك الى زيارة المشاهد والقباب ثم رحل متصيداً الى زيارة المشهدين مشهدى على وابنه الحسين رضى الله عنهما ـ

ولما عاد منهما الى بغداد دخل على الخليفة فخلع عليه الخلع السلطانية وفوض اليه امرا لبلاد والعباد وامره بالعدل فيهم وطلب السلطان ان يقبل يد الخليفة فلم يجبه فسأل ان يقبل خاتمه فاعطاه اياه فقبله ووضعه على عينيه وامره الخليفة بالعود فعاد و خلع الخليفة على نظام الملك وجميع امرآء السلطان و كان نظام الملك قائماً يعرفهم واحداً واحداً بان يقول هذا عبدكم فلان ابن فلان و اقطاعه كذا وكذا وعدة عسكره كذا و كذا الى ان اتى على آخر الامرآء ـ

و دخل نظام الملك المدرسة النظامية وجلس فى خزانة الكتب وطالع فيها كتباً وسمع الناس بالمدرسة عليه جزء حديث واملى جزأ آخر ـ

وأقام السلطان ببغداذ الى صفر سنة ثمانين واربعمائة وعاد منها الى اصفهان وفى هذه السنة ولد للسلطان ولد من تركان خاتون سمى محمود ـ وفى سنة اثنين وثمانين واربعمائة سار السلطان من اصفهان الى ماورآء النهر وملكه وكان رسول الروم قد جاء اليه وهو باصفهان حمل اليه المال المقرر على ملك الروم وحمله نظام الملك مع العسكر الى ان يصل الى كاشغر فتسلم المال منه بكاشغر واذن له بالعود بعد بذل تلك الاموال على الملاحين الذين عبروا الجيش من جيحون اجرة لهم فقال فى سره و وجهه انى احب ان يذكر عنا فى التواريخ ان ملك الروم حمل الجزية وسلمها على باب كاشغر واعطيت لاجرة الملاحين الذين عبروا الجيش من جيحون ولينتهى الى صاحبه ملك السلطان ليعظم خوفه منه ولا يحدث[٣٠] نفسه غير الطاعة ـ

و كان جيش السلطان لما سار الى ماورآء النهر لا يدخل تحت الاحصاء و لايحصرها ديوان فاخذه بخارا ثم حاصر سمرقند وبها صاجبها احمد خان فاخذها بعد محاصرة واخذ احمد خان اسيراً فسيره الى اصفهان ثم سار نحو

كاشغر فبلغ الى يوز كند[٣١] فارسل رسولا الى كاشغر يامر صاحبها باقامة الخطبة والسكة له فاجيب الى ذلك وحضر صاحبها عند السلطان فاكرمه وعظمه واكثر الاحسان اليه واعاده الى بلده واستناب بسمرقند العميد اباطاهر فرجع الى خراسان -

ولما ابعد عن سمرقند عصى اهلها على نائب السلطان فهرب منهم فعاد السلطان اليهم واخذها ثانياً و هرب يعقوب الخانى اخو ملك كاشغر الى فرغانة وكان هو المستولى على سمرقند فسار السلطان فى اثره حتى نزل بيوز كند[٣٢] وارسل الى ملك كاشغر يطلب اخاه فقبض على اخيه وارسله فى جماعة الى السلطان ولما توسطوا الطريق بلغ الخبر بان طغرل بن ينال قد كبس ملك كاشغر واخذه اسيراً فاستمال يعقوب الموكلين به فاطلقوه فلما علم السلطان ذلك سامح[٣٣] فى امر يعقوب ثم صالحه وجعله مقابلاً (MS. p. 22) لطغرل بن ينال دفعاً للفتنة ومنعاً له القوة و ملك البلاد فعاد الى خراسان -

وفى سنة اربع وثمانين[٣٤] واربعمائة وصل السلطان الى بغداد وهى المرة الثانية ونزل بدار السلطنة فى رمضان وجاء اليه اخوه تاج الدولة تتش و اق سنقر قسيم الدولة وغيرهما من زعماء الاطراف و عمل الميلاد ببغداد بوجه لم ير مثله واكثر الشعراء فى وصفه وشرع نظام الملك وغيره من اركان الدولة يعملون الدور ببغداد ليسكنوها اذا قدموا فلم تطل[٣٥] مدتهم بعدها وتفرق شملهم بالموت والقتل فسبحان الدائم الباقى الذى لا يزول ملكه -

و فى سنة خمس وثمانين[٣٦] واربعمائة فى عاشر شهر رمضان استشهد نظام الملك ابوعلى الحسن بن على بن اسحاق الطوسى بالقرب من نهاوند لما عاد مع السلطان من اصفهان الى بغداد ولما كان بهذا المكان خرج بعد الافطار فى محفته الى خيمة حرمه فاتاه شاب ديلمى فى صورة سائل مستميح أو مستغيث فضربه بسكين على فواده فقضى عليه فهرب القاتل فعثر بطنب خيمة فادركوه و قتلوه - كان ذلك الشاب القاتل من الباطنية خليفة الحسن بن صباح يقال له ابوطاهر الاوانى و قيل كان بوضع من قبل السلطان ملك شاه لامر جرى بينه وبين نظام الملك كما سنشير اليه فثارت العساكر بقتله فركب السلطان وسكنهم -

وكان مولده بطوس فى سنة ثمان وقتل عشر واربعمائة وطالعه برج الميزان وعمره حين استشهد سبع وسبعون سنة ومدة وزارته من ابتداء سلطنة الب ارسلان على خراسان ثلثون سنة[٣٧] واما اول حاله فانه كان من ابناء الدهاقين بطوس فزال ما كان مال وملك وتوفيت امه وهو رضيع فكان ابوه يطوف به على المرضعات فيرضعنه حسبة حتى شب وتعلم العربية[٣٨] وسمع الحديث الكثير ثم اشتغل بالاعمال السلطانية ولم يزل الدهر يعلوبه و يخفض سفراً وحضراً وكان يطوف بلاد خراسان ووصل الى غزنه فى صحبة بعض المتصرفين ثم لزم اباعلى ابن شاذان[٣٩] متولى الامور ببلخ لداود والد الب ارسلان فحسنت حاله معه وظهرت كفاءته* وامانته وصار معروفاً عندهم بذلك فلما حضرت الوفاة ابا على بن شاذان[٤٠] اوصى الملك الب ارسلان به و عرفه حاله فولاه شغله ثم صار وزيراً له الى ان ولى السلطنة بعد عمه فاقره على الوزارة واستمر عليها الى ان استشهد فى هذه السنة ـ

كان جغرى بيك دادو قد قال لابنه الب ارسلان عند موته يا بنى هذا حسن الطوسى تسلمه و اتخذه والداً ولا تخالفه فى امر صغير ولا كبير[٤١] و وصى به هو ايضاً لابنه ملكشاه هكذا وصار ملكشاه على وصية ابيه لايخالفه فى شئ ولا يسمع بسعاية السعاة والحساد فيه حتى كانت هذه السنة خمس وثمانين واربعمائة فافسدت ما بينها زوجته خاتون الجلالية تركان خاتون وكانت متفقة فى ذلك مع طائفة من الحساد وكانت تسعى فى الافساد من مدة فلا يصغى السلطان الى قولها وكان سبب انحرافها عن نظام الملك انها كانت تحمل السلطان على امور مكروهة تهويها وكان نظام الملك يمنعه عن فعلها من جملتها انها كانت تلح على السلطان بان يجعل ابنها محمود ولى عهده ويمنعه نظام الملك يذكر له وخامة عاقبته ـ

ولما كانت هذه السنة ظهر امر من حفيد نظام الملك عثمان بن جمال الملك بن نظام الملك وكان رئيساً بمرو فتغير السلطان عليه فانتهزت الفرصة وذكرت للسلطان مازاد فى غضبه وغيظه حتى ارسل السلطان جماعة الى نظام الملك (MS., p. 23) يقول له ان كنت شريكى فى الملك فلذلك[٤٢] حكم وان كنت نائبى فيجب ان تلزم[٤٣] حد التبعية والنيابة وهولاء اولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا امر السياسة

*مخطوطه : كفايته ـ

وفعلوا كذا و كذا فعدد اموراً سعت بها السعاة بواسطه تركان خاتون وكانت قد ارسلت مع هؤلاء الجماعة احداً من خواصها يسمع ما يقول نظام الملك فى جواب السلطان وكان من تمام كلام السلطان الذى ارسله مع تلك الجماعة الى نظام الملك اتريد ان آمر برفع دواة الوزاره من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك ـ

ولما حضرت الجماعة عند نظام الملك وبلغوا الرسالة قال قولوا للسلطان ان كنت ما علمت انى شريكك فى الملك فاعلم فانك ما نلت هذا الامر الا بتدبيرى[٤٤] ورأيي ـ أما يذكر وقت خروج فلان وفلان ووقت وقوع امر كذا وكذا ولما صفت الدولة له اقبل يتجنى على الذنوب ويسمع فى قول السعاة والحساد و قولوا له ان ثبات تلك القلنسوة معذوق بهذه الدواة وان اتفافها ثبات كل امر ومتى اطبقت هذه زالت تلك فان عزم على التغيير فليتزود للاختلاط و الاضطراب ـ واطال القول من هذا القبيل ثم قال لهم قولوا للسلطان عنى ما اردتم فقد أهمنى[٤٥] ما لحقنى من توبيخه و[٤٦] فت فى عضدى ـ

فلما خرجوا من عنده اتفقوا على كتمان ماجرى وان يقولوا له[٤٧] ما مضمونه المعبودية والتنصل و مضوا الى منازلهم وكان الليل قد انتصف فجاء من جعلت معهم تركان خاتون اليها واخبر باقوال نظام الملك فاوصلتها الى السلطان مع الضمايم التى تزيد فى الغضب فبكر الجماعة الى السلطان وهو ينتظر هم فقالوا له ما اتفقوا عليه من الاعتذار والعبودية فقال لهم السلطان انه لم يقل هذا بل قال كيت و كيت فسكتوا رعاية لحق نظام الملك ومابقته فوضع السلطان الشاب الديلمى المزبور فقتله فمات السلطان بعده بخمسة و ثلثين يوماً فانحلت الدولة وظهرت الفتنة فكان قول نظام الملك شبه الكرامة له واكثر الشعرآء فى مراثيه فمن جيدها ما قيل فيه قول شبل الدولة مقاتل بن عطية

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزت[٤٨] فلم تعرف الايام قيمتها فردها غيرة منه الى الصدف

ورأى بعض اصحاب نظام الملك[٤٩] فى منامه بعد قتله فسأله عن حاله فقال كان يعرض على جميع عملى لولا الحديدة التى أصبت بها يعنى القتل ـ وكان رحمه الله عالماً ديناً جواداً حليماً كثير الصفح عن المجرمين طويل

الصمت وكان مجلسه عامراً بالفقهآء والمحدثين وبنى مدارس كثيرة ورباطات عديدة وقناطر وكان اذا سمع الاذان امسك عن كل ما فيه ولا يبداء بشيء قبل الصلاة وازال لعن الاشعرية من المنابر فان عميد الملك الكندرى كان قد حسن للسلطان طغرل التقرير بلعن الرافضة فامربه ثم اضاف اليهم الاشعرية فلعن الجميع وكان امام الحرمين والامام القشيرى قد رحلا الى الحرمين لذلك ولما ازاله نظام الملك عادا وكان نظام الملك اذا دخل عليه امام الحرمين والقشيرى يقوم لهما ويكرمهما ويجلس فى مسنده كما هو واما اذا دخل عليه ابوعلى الفارمذى[٥٠] من الصوفية بجلسه هو فى مقابلته على ركبته فسئل عن ذلك فقال هما وامثالهما يثنون على فيزيدنى كلامهم عجباً واما هذا الشيخ يذكرلى[٥١] عيبى وما انا فيه من الظلم فتنكسر نفسى لذلك وارجع عن كثير مما انا فيه - وكان رحمه الله يأكل فى اكثر الازمان مع اصحاب الفقر والامراض الذين يكره الناس مجالستهم - واخباره مشهورة (MS., p. 24) قد جمعت له المجاميع السائرة فى البلاد -

ولما قتل نظام الملك سار السلطان الى بغداد و دخلها فى الرابع و العشرين من رمضان - وامر ان تفصل[٥٢] خلعة الوزارة لتاج الملك الذى سعى بنظام الملك و اتفق مع تركان خاتون فى اغضاب السلطان عليه ولما فرغ من الخلع و لم يبق غيرلبسها و الجلوس فى الدست مسند الوزارة اتفق ان السلطان خرج الى الصيد فعاد ثالث شوال مريضاً و انشب الموت فيه اظفاره و لم يمنع عنه سعة ملكه وكثرة عسكره - و قيل ان الخليفة دعا عليه لانه لما دخل بغداد فى هذه الدفعة امر الخليفة بالخروج عن بغداد فانه كان متغيراً على الخليفة بسبب ابنته شكت اليه من الخليفة كثرة اطراحه عليها و كانت تحت الخليفة - ولما امر بالخروج استمهله شهراً فلم يمهله الا الى ان يعود من الصيد - و كان سبب مرضه انه اكل لحم صيد فحمه فافتصد و لم يستوف اخراج الدم فثقل مرضه وكانت حمى محرقة - فتوفى ليلة الجمعة النصف من الشوال سنة خمس وثمانين واربعمائة بعد خمسة وثلاثين يوماً من قتل نظام الملك - و كانت ولادته فى اليوم التاسع عشر من جمادى الاولى من سنة سبع واوبعين واربعمائة - وطالع مولده برج الاسد فيها الشمس والرأس فى العاشر - و قيل سنة خمس و اربعين و اربعمائة - و عمره ثمان وثلثون سنة و مدة سلطنته نحو عشرين سنة و كان لقبه من دار الخلافة

السلطان جلال الدولة معزالدين ملكشاه يمين امير المومنين - و نقل الى اصفهان و دفن فيها -

و كان ملكه قد اتسع من اقصى بلاد الترك الى اقصى بلاداليمن و خطب له من حدود الصين الى آخر الشام و من اقاصى بلاد الشمال الى آخر بلاد اليمن و حمل اليه ملوك الروم الجزية و لم يفته مطلب وانقضت ايامه على امن عام و سكون شامل و عدل مطرد -

قال ابو ابراهيم الفتح بن على بن محمد البنداري[٥٣] فى زبدة النصرة ونخبة العصرة و اصل هذا الكتاب الموسوم بنصرة الفترة وعصرة الفطرة لعماد الدين الكاتب الاصفهانى الفها فى اخبار الوزراء السلجقية ان ملك شاه كان قد قدر فتح ممالك الدنيا واقاليمها فجعل الامير برسق للروم فضايقها حتى قرر على قسطنطينية فى كل سنة ثلثمائة الف دينار للسلطان و ثلاثين الف دينار له جزية يؤديها الرومى بالصغار والهوان - وسير اخاه تتش الى الشام وقرر معه فتح ديار مصرو بلاد المغرب وامر مملوكيه بزان صاحب الرها واقسنقر صاحب حلب ان يطيعاه على هذا الغرض و يساعداه على اداء هذا المفترض وامر سعد الدولة كهرآئين بفتح بلاد اليمن و استخلاص زبيد وعدن فسير اليها جيشاً قدم عليه ترشك[٥٤] فمضى اليها و استولى عليها ومات بها وعمره سبعون سنة وهو مجدور و تولى مكانه يرنقش صاحب قتلغ امير الحاج و جرى فى استيلاء على ذلك المنهاج - و اوغل ملكشاه فى بلاد الترك حتى اطاعه صاحب طراز وكانت حلة[٥٥] الدولة بجلالة جلالها ذات طراز وجمال -

فيها ايضاً : وكان ملكشاه ملكاً سيرته العدل و سريرته الانصاف و الفضل شجاعاً مقداماً صائب الراى[٥٦] والتدبير حقيقاً بالتاج والسرير - أيامه فى ايام آل سلجوق كالواسطة فى العقد - و قد تناسبت فى الحسن بدايته ونهايته و تناسقت فى الاقبال فاتحته و خاتمته - ولم يتوجه الى اقليم الا فتحه ولما توجه الى الشام وانطاكية بلغ الى حد قسطنطينية وقرر الف الف دينار احمر تحمل الى خزانته من تلك الولاية ووضع فى النواحى التى فتحها من الروم خمسين (MS., p. 25) منبراً اسلامياً و عاد الى الرى ثم قصد سمرقند واخذها و حمل صاحبها غاشيته على كتفه و سار فى ركابه من موضع سرير افراسياب الذى كان ملك ملوك الترك الى موضع سرير ملكه و حمل اميراً

الى العراق ثم من عليه بالاطلاق و اعاده الى ملكه - و توجه فى السنة القابلة الى اوزكند و وصل حمل انطاكية اليه وانقاد له ملك الترك و وصل به الى اصفهان ثم اكرمه و اعاده الى ملكه من بلاد الترك - وهذه السعادة كلها انما تيسرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بزرك قوام الدين نظام الملك ابى على الحسن بن على اسحاق رضى اميرالمؤمنين المستغنى عن الوصف بشهرته - انتهى -

و كان ملكشاه من احسن الناس صورة و سيرة - و كان معتدل القامة ضخماً ابيض فيه حمرة و كان يكسر احدى عينيه على عادتهم - و كان فارساً شجاعاً يحسن العمل بجميع السلاح و كان مولعاً بالصيد لايصبر عنه - اصطاد مرة صيداً كثيراً فامر بعده فكان عشرة آلاف رأس فأمر بصدقة عشرة آلاف دينار و قال انى اخاف الله كيف ازهقت ارواح هذه الحيوانات بغير ضرورة مأكله و صار بعد ذلك كلما صاد شيئاً يصدق بعدده دنانير رحمه الله -

و من محاسنه انه لما خرج عليه اخوه تكش بخراسان اجتاز بمشهد على الرضا بطوس فزاره مع نظام الملك فلما خرج قال لنظام الملك[٥٧] باى شئ دعوت قال دعوت الله ان ينصرك فقال اما انا لم ادع بهذا بل قلت اللهم انصر اصلحنا للمسلمين وانفعنا للرعية -

و منها ايضاً ان رجلين من قرية الحدادية بالعراق جاءا اليه يشكوان من عامل القرية الامير خمارتكين بانه صادرنا بالمال وكسر ثنيتى أحدنا و قد أتيناك لتقتص[٥٨] لنا منه وتأخذ حقنا كما اوجب الله عليك والا فالله يحكم بيننا فنزل من دابته وامر هما ان يأخذا بكميه و يسحباه[٥٩] الى خواجه حسن يعنى نظام الملك فامتنع الشخصان فالح عليهما حتى فعلا و امسك كل منهما[٦٠] بطرف كمه فمشى معهما الى نظام الملك فخرج مسرعاً وقبل الارض وقال يا سلطان العالم ما حملك على هذا فقال كيف يكون حالى عندالله اذا طولبت بحقوق المسلمين وقد قلدتك هذا الامر لتكفينى مثل هذا الموقف فأنت المطالب ان نال الرعية أذى فانظر لى و لنفسك فقبل الارض وخدمه فارضى الرجلين بكل ما يطلبانه -

و اما وجوه الخيرات كبناء القناطر و المساجد و الرباطات و حفر الانهار والابار فلا تعد ولا تحصى وقد اكثر الشعرآء فى مراثيه و كان رحمه الله حنفى المذهب صحيح الاعتقاد متمسكاً بالشرع -

ملاحظات

١- مخطوطة بايزيد : الاجنا ، انظر ايضا مخطوطة طوب ، ص ١٦ و كتاب الكامل لا بن الاثير ١٠ : ٥٧

٢-٤- مخطوطة : اياز ، ايضا الياس ، انظر شجرة النسب فى المخطوطة و فى راحت الصدور للراوندى ، ص ٨٤

٥- مخطوطة بايزيد : حزموا ، انظر مخطوطة طوب ، ص ١٧ ، ابن الاثير ، ١٠ : ٥٣

٦- مخطوطة : اياس

٧- غير موجود فى مخطوطة بايزيد ؛ انظر مخطرطة طوب ، ١٨ ؛ ابن الاثير ، ١٠ : ٧٩

٨- يطق (مخطوطة طوب ١٩ ؛ ابن الاثير ، ١٠ : ٨٣)

٩- مخطوطة بايزيد : اصبهان

١٠- غير موجود فى المخطوطة ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ٨٤

١١- مخطوطة بايزيد : جال الدين

٢١- مخطوطة بايزيد : اخوته ؛ انظر زبدة النصرة ونخبة العصرة للبندارى ، ص ٧٣ ، طبعة لايدن

١٣- مخطوطة بايزيد : جرة ؛ انظر البندارى ، ص ٧٣

١٤- مخطوطة بايزيد : و رسولاً

١٥- مخطوطة : شفاها ؛ البندارى ، ص ٧٤ : سفاها

١٦- مخطوطة بايزيد : ابن قبان ؛ انظر البندارى ، ص ٧٤

١٥- مخطوطة بايزيد : جال الدين

١٨- مخطوطة : الاموال

١٩- مخطوطة : حاله ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ٨٨

٢٠- مخطوطة : ياحر ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ٨٨-٨٩

٢١- مخطوطة بايزيد : جملوه ، انظر مخطوطة طوب ص ٢٠

٢٢- مخطوطة : هو و فى اصحابه

٢٣- مخطوطة : فى اليوم الخامس

٢٤- ابن الاثير ، ص ١٠١ : ابن عطير

٢٥- مخطوطة باعها منهم

٢٦- مخطوطة بايزيد : تكرار الكلمة

٢٧- مخطوطة بايزيه : داود ؛ مخطوطة طوب : دارة

٢٨- مخطوطة : حضنتة ، ان قراءة كلا ٢٧ و ٢٨ قياسية و مبنية على اقتباس محمد راغب الطباخ فى اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء من بغية الطلب فى تاريخ حلب لا بن العديم (اعلام النبلاء طبعة حلب سنة ١٩٢٣ ، ١ : ٣٦٠)

٢٩- مخطوطة : ربته
٣٠- مخطوطة : تحدث ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ١١٧
٣١-٣٢- مخطوطة : نور كند ؛ انظر ابن الاثير، ١٠ : ١١٧-١٩
٣٣- مخطوطة بايزيد : سامه فح ؛ انظر مخطوطة طوب ، ص ٢١
٣٤- مخطوطة بايزيد : سبعين ؛ انظر مخطوطة طوب ، ص ٢١
٣٥- مخطوطة طوب ، ص ٢١ ؛ ابن الاثير، ١٠ : ١٣٩ : يطل
٣٦- مخطوطة بايزيد : سبعين ، انظر مخطوطة طوب ، ص ٢١
٣٧- مخطوطة طوب، ص ٢٢ : مدة وزارته من ابتداء سلطنة الب ارسلان سنة ٣٠ سوى وزارته فى مدة امارة الب ارسلان على خراسان
٣٨- مخطوطة طوب ، ص ٢٢ : تعليم العربية و الفقه و تعلم سمع الحديث
٣٩-٤٠- مخطوطة : شادان ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ١٤٤ ؛ وفيات الاعيان لا بن خلكان طبعة القاصره، ١ : ٢٠٢
٤١- مخطوطة بايزيد : كثير ؛ انظر مخطوطة طوب ، ص ٢٢
٤٢- مخطوطة : فذلك ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ١٤٢
٤٣- مخطوطة : يلزم ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ١٤٢
٤٤- مخطوطة : بتدبرى ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ١٤٢
٤٥- مخطوطة : وهمنى
٤٦- مخطوطة : ما
٤٧- غير موجود فى المخطوطة ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ١٤٣
٤٨- مخطوطة : بدت ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ١٤٣ ؛ وفيات الا عيان ، ص ٢٠٣
٤٩- مخطوطة : نظام الدولة
٥٠- مخطوطة : الفار مدى ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ١٤٠
٥١- مخطوطة بايزيد : تذكر لى ؛ انظر مخطوطة طوب، ص ٢٣ ؛ و ابن الاثير، ١٠ : ١٤٥
٥٢- مخطوطة يفصل ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ١٤٦
٥٣- انظر البندارى ، ص ٧٠ - ٧١
٥٤- مخطوطة بايزيد : برشلى ؛ البندارى ، ص ٧٠
٥٥- مخطوطة بايزيد : جلة ؛ البندارى ، ص ٧١
٥٦- مخطوطة بايزيد : الرى
٥٧- مخطوطة بايزيد : لنظام
٥٨- مخطوطة : ليقتص ؛ انظر ابن الاثير ، ١٠ : ١٤٨
٥٩- مخطوطة : اسحباه
٦٠- مخطوطة : منهما